الفصل الخامس
الأدوية المعدنية عند العرب

انقسمت طرق العلاج والتداوى عند العرب إلى أربعة اتجاهات: فهناك أدوية تشتق من النباتات وأخرى تؤخذ من المعادن وطائفة ثالثة من الأدوية تستخرج من الحيوانات، بجانب مجموعة الأدوية المولدة والمركبة. هذه الأدوية والعقاقير كانت لها طرق محددة لاستخراجها وتحضيرها، وعمل الأوزان اللازمة لها، وسن القوانين والتشريعات لاستخدامها. وسوف نركز فى هذا الفصل على الأدوية التى تؤخذ من المعادن والأحجار.

فى البداية فإن فكرة استخدام الأدوية المعدنية فى العلاج قد انتقلت إلى العرب من قدماء الإغريق والرومان وغيرهم، وقد حفظ التراث العربى الكثير من استخدامات العقاقير المعدنية نقلاً عن اليونان والرومان وغيرهم رغما عن أن بعض هذه الاستخدامات غير واضحة وتشوبها الخرافات بمنطق العصر الحديث. وفى الفقرات التالية بعض النماذج لاستخدام الأدوية المعدنية فى علاج الأمراض نقلاً عن الأمم السابقة، وهى كما ذكرنا تشتمل على الكثير من الخرافات.

نماذج لاستعمال الأدوية المعدنية عند اليونان والرومان والعرب وغيرهم :

فى كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزوينى(٦٠٥هـ/١٢٠٨م - ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) ذكر العديد من أسماء الفلزات والمعادن والأحجار سواء الكريمة منها وغير الكريمة، كما ذكر منافعها الطبية نقلاً عن أرسطو وبلينى وهرمس وغيرهم، وذكر أيضا منافع الأحجار الكريمة ونصف الكريمة فى التداوى. واليك

بعض الأمثلة من كتاب العجائب المشار إليه لتوضيح هذا الاتجاه. يقول الإمام أبو عبد الله زكريا بن محمد القزوينى ما نصه:

١ - **حجر إقليميا الفضة:** قال أرسطو: إن الفضة أيضاً إذا أدخلت النار للخلاص من الأجساد التى خالطتها يعلوها جسم يسمى إقليميا الفضة (خبث الفضة)، نافع من القروح والسعفة (قروح تخرج من رأس الصبى ووجهه)، والجرب طلاء مع الأدهان. وقال غيره: ينفع من وجع العين ذرورا وفى المراهم ينبت اللحم فى الجراحات.

٢ - **حجر توتيا:** قال أرسطو: حجر معدنى ذو أنواع، أبيض وأخضر وأصفر، معادنها سواحل بحر الهند والسند، كلها تنفع العيون المرطوبة وتزيل الصنان. وفى رأى الكاتب أن حجر توتيا هذا قد يكون نوعاً من معادن الكبريتات الطبيعية.

٣ - **الأسرب (القصدير):** تولده كالرصاص وهو صنف أردأ منه لأن مادته أكثر وسخا. ومن خواصه تكليس الذهب وتكسير الماس. ولو وضع الماس على السندان وضرب بالمطرقة دخل إما فى السندان أو فى المطرقة، ولو وضع على الأسرب تكسّر بأدنى ضربة ويكون جميع أقطاعه مثلثا. وقال الرئيس ابن سينا: تؤخذ منه صفيحة وتشد على الخنازير (قروح تحدث فى الرقبة) والغدد تذيبها. وقال بليناس فى كتاب الخواص: من اتخذ منه صفيحة وزنها ثمانية وعشرون درهما وشدها على بطن إنسان بطلت شهوته.

٤ - **حجر دهنج (ملا كيت):** قال أرسطو: إنه حجر أخضر فى لون الزبرجد، لين المجس - كما قال هرمس - يتكون فى معدن النحاس... وهو أنواع كثيرة: الأخضر الشديد الخضرة، والموشى، وعلى لون ريش الطاووس، والكمد. ونسبة

الدهنج إلى النحاس كنسبة الزبرجد إلى الذهب، وهو حجر يصفو بصفاء الجو ويتكدر بكدورته.

ومن عجيب خواصه أنه إذا سقى إنسان من محكه يفعل فعل السم، وإن سقى شارب السم نفعه. وإن لدغ إنسان ومسح الموضع به سكن وجعه. ويسحق بالخل ويطلى به القوباء فإنها تذهب بإذن الله تعالى. وقال غيره: ينفع من خفقان القلب ويدخل فى أدوية العين فيشد أعصابها، وإن طلى بحكاكته بياض البرص إزالة وإن علق على إنسان غلبته قوة ألباه.

٥ – **حجر شب**: قال ديسقوريدس: أصناف الشب كثيرة، وأشهرها اليمانى. وهو أبيض وفيه صفرة وفى طعمه حموضة. وذكر أن الشب اليمانى يقطر من جبال اليمن وهو ماء، فإذا صار إلى الأرض استحال شبا. ينفع من نزف كل دم وقذفه، وهو مع دردى الخل يجفف القروح العسرة المتآكلة، وطبيخه إذا تمضمض به نفع من وجع الأسنان. والصباغون يجعلون الأثواب فى الشب ثم فى الصبغ فإن الصبغ لا يفارقه. والشب فى آنية الرصاص أمان من القولنج والله تعالى أعلم.

٦ – **حجر قيسور**: قال أرسطو: إنه حجر خفيف مخلخل، يعوم على الماء ولا يغوص. يوجد بأرض صقلية وأرمنية ويسمى أيضا حجر الدفاتر لأنه إذا حك به المكتوب محاه. ومن خاصيته تنقية الأسنان من الوسخ وتبييضها إذا سحق واستن به. وقال سرجويه: إنه يحلق الشعر إذا مربه.

٧ – **حجر الزنجار**: قال أرسطو: هو حجر يستخرج من النحاس بالخل، وفيه قوة السم إذا شرب. وخاصيته أنه يبرئ البواسير ويأكل اللحم الميت من الجراحات. وقال ابن سينا: هو ناتج النحاس بأن يكب آنية نحاس على خل. وينفع من البواسير بأن يتخذ منه ومن الأشق (صمغ نبات كالقثاء) فتائل يحشى بها.

واضح من النصوص السبعة السابقة التى اقتطفناها من كتاب العجائب للقزوينى استخدامات الأحجار والمعادن والفلزات فى التداوى: بعض هذه الاستخدامات لازال صحيحاً للآن والبعض الآخر تشويه الخرافة. وواضح أيضاً أن القزوينى نقل فى هذا المجال كثيراً عن أرسطو وبلياس وديسقوريدس وهرمس وسرجويه وغيرهم، كما نقل عن الشيخ الرئيس ابن سينا، وإن كان قد لزم الأمانة فيما نقل ونسب كل قول لقائله كما نفعل تماما فى البحوث العلمية فى الوقت الحالى.

من أقوال النبى صلى الله عليه وسلم فى منافع الأحجار :

المعادن قسم من أقسام الموجودات التى تبدأ بالإنسان فالحيوان فالنبات، ثم المعدن والجماد، وإن كانت تأتى فى آخر هذه السلسلة من الموجودات، وهى جميعاً من خلق الله. وقد أهتم العرب والمسلمون بالمعادن والأحجار وجربوها فى كثير من شئون الحياة والتداوى. ونسوق هنا جانباً من الأحاديث التى وردت عن النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى فوائد بعض المعادن، وكذلك طرفاً مما ذكره بعض الحكماء بخصوصها، ومرجعنا فى ذلك هو كتاب العجائب للقزوينى الذى سبقت الإشارة إليه.

١ – أثمد: قال أرسطو: هو حجر معروف له معادن كثيرة، وأغلبها فى أكناف المشرق وأجود أصنافه الأصفهانى. وهو حجر يخالطه الرصاص، ينفع العيون اكتحالاً ويرفع عنها طبق الماء ويقوى أعصابها، ويدفع عنها كثيراً من الآفات والأوجاع لا سيما المشايخ والعجائز الذين ضعفت أبصارهم، وإذا جعل معه شئ من المسك يكون غاية.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(عليكم بالأثمد فإنه ينبت الشعر ويحد البصر)**. وينفع من حرق النار إذا طلى بالشحم.

٢ – حجر عقيق: قال أرسطو: أصنافه كثيرة وأجودها ما يجلب من اليمن، وقد يوجد على ساحل البحر بالأردن.

وأحسنه ما اشتدت حمرته وصفت صفرته. فمن لبس من أحسنه سكنت حدته عند الخصومة وعند الضحك أيضاً، ومن استاك بنحاتته ذهب عنه صدأ الأسنان وبيضها، ويذهب بالرائحة الكريهة من الفم والأسنان، وينفع من خروج الدم من حواليها.

وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(من تختم بعقيق لم يزل فى بركة وسرور). ومحرقه يقوى العين وينفع من الخفقان.**

٣ – **حجر ملح:** قال أرسطو: الملح أصناف منها المتحجر كالبلور ومنها ما يكون كالثلج. وتحجره كتحجر سائر الأحجار، ومنها ما يكون سؤرجا فى الأرض السبخة جعلها الله تعالى قواما لمصالح الدنيا، فيصلح لكل شئ يخالطه حتى الذهب فإنه يحسّن لونه ويزيد فى صفرته.

وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(يا على إبدأ بالملح واختم به فإن فيه شفاء من سبعين داء). ومن خواصه دفع العفونات كلها . . .**

٤ – **حجر فيروزج :** قال أرسطو: هذا الحجر أخضر مشوب بزرقة، معادنه أرض خراسان. وهو يصفو لونه من صفاء الهواء وإذا تكدر الجو تكدر. ينفع العيون إذا سحق مع الأكحال واكتحل به. وليس هو من لبس الملوك لأنه ينقص الهيبة.

وعن جعفر بن محمد رضى الله عنهما: ما افتقرت يد تختمت بفيروزج.

فى الفقرات السابقة استعرضنا بعضاً من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التى قالها فى ثلاثة من الأحجار هى: الأثمد – العقيق – الملح، كما استعرضنا

طرفا من أقوال بعض حكماء المسلمين فى حجر الفيروزج. وهذا وحده يبين اهتمام الرسول والمسلمين الأوائل بالمعادن وفوائدها الصحية ويكفى ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم عن الملح من أن فيه شفاء من سبعين داء.

الخلاصة :

استخدم العرب والمسلمون الأحجار والمعادن والفلزات فى التداوى وكانت بعض الاستخدامات صحيحة والبعض الآخر تشويه الخرافة ويعوزه الدليل. وقد نقل علماء العرب كثيراً عن علماء اليونان والرومان والفرس من أمثال: أرسطو وبلياناس وديسقوريدس وهرمس وسرجويه وغيرهم كما نقلوا عن علماء المسلمين المتقدمين مثل ابن سينا ولزموا الأمانة فيما نقلوه.

استعرضنا بعد ذلك طرفا من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التى قالها بخصوص ثلاثة من الأحجار هى: الأثمد – العقيق – الملح، وكذلك ما قاله بعض حكماء المسلمين بخصوص حجر الفيروزج. هذا وحده يبين اهتمام الرسول والمسلمين الأوائل بالمعادن وفوائدها الصحية بعيدا عن الخرافة والأوهام.

رجعنا فى هذه الدراسة إلى كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات من تأليف العالم القزوينى الذى توفى سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م وهذا الكتاب موسوعة قيمة تشتمل فى جزء منها على دراسات للمعادن التى بالأرض. وقد درسنا بهذا الفصل أحد عشر نموذجاً عن المعادن كلها مقتبسة من المصدر المشار إليه، رغما عن احتوائه على عدد أكبر من أسماء الأحجار والمعادن. والنماذج المختارة على درجة عالية من الوضوح والتنوع بحيث تعبر عن طريقة استخدام العرب للمعادن فى التداوى.